شواغل مسكونيّة

الدكتور طارق متري

تشهد الكنائس في بلادنا، كما في العالم أو معظمه، حركة مزدوجة سعيًا إلى الوحدة من جهة وتأكيدًا على الخصوصيّة من جهة أخرى. وبغرض التوفيق بين نزعتين متعارضتين، في الظاهر على الأقلّ، في الأوساط المسكونيّة، يجري التشديد، على أنّ الوحدة غير التجانس وأنّها لا تُبنى على حساب التنوّع أو بالرغم منه بل تقوم فيه وترعاه. ولا يقف هذا التشديد عند حدود الفكرة بل يتعدّاها إلى سياسة التقارب بين المسيحيّين في أخذها وردّها بين طلب الوحدة في الإيمان وممارسة حوار المحبّة.

في هذا المقال، سأحاول ملامسة الواقع في بلادنا فأشير، أوّلاً، إلى بعض العقبات، غير العقائديّة، التي تحول دون تقدّم مرضٍ في حوار المحبّة بين المسيحيّين ممّا يعرقل استعادة الوحدة في الإيمان أو يحطّ من قدرها. ثمّ أتوقّف عند بعض فرص التقدّم الفعليّة، على الصعيدين وهي فرص تكاد تُغفَل بسبب الاستعجال المشروع في تحقيق «إنجاز» محسوس. أمّا الحديث عن المستقبل فليس تعدادًا للتوقّعات ولا تحليلاً استشرافيًا بل تأمّلات سريعة أضعها تحت علامة الرجاء.

عقبات على الطريق

أولى العقبات افتراض تناقض أو تعارض أو تنافس بين حوار المحبّة والسعي إلى الوحدة في الإيمان.

فعددٌ من العاملين في الحوار، وهو قليل لكنّه مؤثّر، قد يغالي في التشديد

على الحوار العقائديّ كشرط سابق للتلاقي والتعاون، فيما يجنح عدد آخر إلى اعتبار المسائل العقائديّة (أو الشأن الإيمانيّ نفسه) قضيّة ثانويّة أصبحت حاجزًا. وهذا الحاجز لا يمكن تخطّيه إلاّ من خلال العمل المشترك. وممّا يقلّل حقًّا من أهمّيّة الحوار اللاهوتيّ أو يجعل منه ترفًا أنّ هذا الحوار لا يعني إلاّ المسؤولين الكنسيّين أو اللاهوتيّين المتخصّصين. وبات شائعًا الظنّ، أو سوء الظنّ في أحيان كثيرة، أنّ «اللاهوتيّين»، وهم في الأصل مسؤولون عن الانشقاقات، يؤخّرون لا بل يعرقلون المسعى الوحدويّ بين المسيحيّين. ولعلّ بعض المسؤولين يرون على غرار رائد مسكونيّ كبير، «أنّ مقاربة اللاهوتيّين في حوار المناظرة مع الآخرين تحمل، دائمًا، كبرياء خانقة»[١].

ثانية العقبات تتّصل بكيفيّة تعاملنا مع التاريخ. ذلك أنّنا نعيش في منطقةٍ، التاريخُ فيها مضى من غير أن يمضي. فاستحضاره ليس عمليّة دراسة وتقويم حياديّة أو انكباب على التراث بغرض التعليم، بل هو، أيضًا، إسقاط الحاضر على الماضي وانفعال الراهن بمشاكل الماضي.

فبالإضافة إلى نوع «خرافة الأصل» عند بعضهم أو إصرارهم على «أبّهة تاريخ منفصل»[٢]، يقرأ الكثيرون تاريخهم ويكتبونه من منظور الكرامة الجماعيّة المجروحة أو من موقع تعالي الأقوياء أو تجاهلهم للآخر. وتزداد المشكلة حدّة عندما نبحث عن الخصوصيّة في كلّ شيء وكأنّ لكلّ جماعة جوهرًا أبديًّا يظهر في تصرّفاتها عبر التاريخ أو عندما يدعو آخرون إلى نسيان الماضي لا توبةً أو تحرّرًا من ثقله بل طمعًا لأحداثه أو نفيًا لأثرها الواقعيّ على العلاقات بين الجماعات المسيحيّة.

ثالثة العقبات تتمثّل في الخوف الأقلويّ الذي يؤدّي إلى استعجال ما

---

(١) راجع مثلاً البطريرك أثيناغوراس الأوّل في حديثه مع أوليفيه كليمان ردًّا على سؤاله «يقولون إنّك عدو اللاهوتيّين»؟

Olivier Clément, *Dialogues avec le Patriarche Athénagoras*, Paris, Fayard, 1969, pp 246-259.

(٢) حسب عبارة أحمد بيضون المؤفّقة، راجع كتابه:

Ahmad Beydoun, *Identité confessionnelle et temps social chez les historiens libanais contemporains*, Beyrouth, Publications de l'Université Libanaise, 1984.

نخاف منه. فنسمع، أحيانًا، دعوة إلى رصّ الصفوف في مواجهة خطر خارجيّ، أكان حقيقيًّا أم مبالغًا فيه أم مفترضًا. ويضيق هذا الخوف بالتنوّع ويخنق الحرّيّة والإبداع ويغلّب ما يُظنّ أنّه المصلحة التاريخيّة للجماعة على الأمانة لإنجيل يسوع المسيح ويقود إلى التنافس بين الجماعات المسيحيّة المختلفة لا بل التناحر بينها[1].

والعقبة الرابعة هي، في حقيقة الأمر، ملازمة للثالثة وتكمن في اعتبار المسيحيّين جماعة سوسيولوجيّة لا كنيسة، وتحدّ هذه الجماعة خصائص اجتماعيّة - ثقافيّة أو حقوق سياسيّة أو هويّة شبه - قوميّة. فالطوائف امتداد للملل، عوالم تنزع إلى التمايز والانغلاق وتتماسك في العصبيّة أو تتمثّل بالأمم في سلوكها وأحلامها وأوهامها. والطوائفيّة ترهن الشأن الكنسيّ، ومن ضمنه المسكونيّ، لحساب المصالح وموازين القوى.

أمّا العقبة الخامسة فتحصل عن اعتبار المسكونيّة ظاهرة تختلف عن سابقاتها. فهي تلتصق بالممارسة المسكونيّة إيّاها. هناك مَن يمكن تسميتهم «أهل التسرّع المسكونيّ» ممّن يرون في قضايا الإيمان والنظام والهويّة الكنسيّة شؤونًا نسبيّة فيسعون إلى التوفيق أو التلفيق، يأخذون من هنا وهناك، من غير احترام لذاتيّة كلّ تراث كنسيّ. ويحسبون الوحدة نتيجة تقارب أشخاص لا مصالحة جماعات. ومنهم مَن يتردّدون، على نحو واعٍ أو غير واعٍ، من اجتذاب الآخرين أو استيعابهم. فالممارسة هذه تتهدّد العمل المسكونيّ في أكثر من مجال وهي تضعف صدقيّته إذ توقظ شكوكًا كامنة عند البعض حيال تقارب يخفي نيّة التذويب أو الإلحاق.

فرص التقدّم

ممّا لا شكّ فيه أنّ إمكانات اللقاء بين المسيحيّين وتعارفهم الحقّ وتعاونهم تعزّزت، بشكل ملحوظ، في العقدين الأخيرين. وإذا كان من الصعب تقويم

---

(١) راجع، على سبيل المثال، كتاب
John Joseph, *Muslim-Christian Relations and Inter-Christian Rivalries in the Middle East*, State University of New York, 1983.

نتائجها أو قطف ثمارها كلّها، فمن عدم الإنصاف التأكيد على أنّها لم تحقّق شيئًا يذكر. ففي بعض المجالات شهدنا تقدّمًا فعليًّا وإن غير ملموس حتّى الآن أو غير معروف على نطاق واسع. أمّا في المجالات الأخرى فهناك روحيّة تنمو بالرغم من الانمكاسات وهي تتجاوز حالات العداء المعلن والتجاهل إلى نوع من المسالمة أو الموادعة تيسّر طرح المشكلات والسعي إلى معالجتها.

أهمّ ما يستوقفنا من تقدّم على طريق استعادة الوحدة في الإيمان هو نجاح الحوار اللاهوتيّ في تجاوز الخلافات العقائديّة المتّصلة بمجمع خلقيدونيّة (٤٥١). فالكنائس الأرثوذكسيّة وشقيقاتها غير الخلقيدونيّة توصّلت في اجتماع شامبيزي (تشرين الثاني ١٩٩٠) وبعد سنوات من الحوار الرسميّ، إلى صياغة مشتركة للعقيدة الخاصّة بلاهوت المسيح. وهي تنتظر موافقة الكنائس الرسميّة لتصير بمثابة إعلان إيمان مشترك يؤدّي إلى قيام شركة كنسيّة كاملة بين العائلتين.

أمّا على صعيد «حوار المحبّة» فهناك علامات تقدّم، وإن كان هذا الحوار لا يخلو من التأزّم، تستحقّ الاهتمام والرعاية. حسبنا أن نذكر بعضها، ولو من دون تفصيل.

نشير، أوّلاً، إلى انضمام الكنائس الكاثوليكيّة إلى مجلس كنائس الشرق الأوسط (آذار ١٩٨٩) من حيث هو «اكتمال العقد» في هيئة ترى نفسها خادمة لتقارب الكنائس وتعاونها وأداة لشهادتها المشتركة. ويأتي هذا الانضمام تكريسًا لسنوات طويلة من المشاورات والعمل المشترك رفعت كلّ تردّد أو تحفّظ من هذه الجهة أو تلك. ولعلّه من أبرز ما يعد به هذا الانضمام هو الاستعجال في الاتّفاق على تعييد الفصح معًا. فبعدما تناول البحث مختلف جوانب المسألة، اقترب الجميع من اعتماد خيار واحد على صعيد المنطقة يأخذ بالاعتبار أهمّيّة التشديد على هويّة شرقيّة جامعة ويراعي ظروف بعض الكنائس الرعائيّة وينسجم مع ما سبق واعتمد في بعض البلدان العربيّة. الاتّفاق على تعييد الفصح معًا على صعيد المنطقة كلّها بالغ الدلالة من حيث العزم على تذليل

الحواجز غير العقائديّة التي زادت في حدّة الانقسام. وهو مؤهّل أن يسهم في تخطّي المواجهة بين «كبرياء وأخرى»[1].

وفي السياق نفسه، لا بدّ من الالتفات إلى الأوّليّة التي تعطى داخل مجلس كنائس الشرق الأوسط لمعالجة الجراح التي أصابت العلاقات بين المسيحيّين والتي ما زالت تعيق حوار المحبّة. هناك سعي جدّي للوصول إلى اتّفاق بشأن الاقتناص على مختلف أشكاله[2] لا يكون مجرّد تعهّد بعدم ممارسة ضغط وإغراء يؤدّي إلى سلخ مؤمنين عن كنيستهم الأصليّة أو تغريبهم عنها بل يتعدّى ذلك إلى تعزيز التشاور بين الرعاة في سبيل التعاطي مع «الأوضاع الشائكة» على نحو يجعل منها مناسبة لإحلال التلاقي بدل التنافر، والتعاون عوض التنافس. لذلك، يجري العمل من أجل وضع نوع من الدليل للسلوك المسكونيّ في الشؤون الرعائيّة يبيّن مجالات التعاون وسبلها ويساعد في تبديد الالتباسات التي تقوم، هنا وثمّة، بفعل التسرّع أو الغلوّ في الحذر.

وغني عن القول إنّ المشكلات الرعائيّة بالرغم من خصوصيّتها المحلّيّة، تعني الكنائس كلّها وهي تُبحث على المستوى العالميّ وقد اكتسبت أهمّيّة متزايدة في الفترة الأخيرة خاصّة بعد أن أصدرت لجنة الحوار الكاثوليكيّ - الأرثوذكسيّ وثيقة حول الاقتناص والاتّحاديّة - الانضماميّة[3] (Uniatisme) وإصرار الكنائس الأرثوذكسيّة لاحقًا على إعطاء هذه القضيّة الاهتمام الأوّل فتستطيع بعدئذ معاودة الحوار في الشؤون العقائديّة.

نذكر أيضًا، في معرض تلمس علامات التقدّم، ازدياد الوعي بين المسيحيّين لأهمّيّة التعاون في خدمة الفقراء والتنمية وطلب العدالة والسلام.

---

(١) حسب عبارة للبطريرك إغناطيوس الرابع في معرض حديثه عن التقارب المنشود بين الكنائس، راجع:

Patriarche Ignace IV, *Jérusalem et le patriarcat d'Antioche*, Editions de l'Université de Balamand, 1991.

(٢) هناك ورقة عمل (مسوّدة ثالثة) تقترح مقاربة مسكونيّة لمشكلة الاقتناص، أعدّتها لجنة الإيمان والوحدة المنبثقة عن مجلس كنائس الشرق الأوسط بعد مناقشة طويلة وهي ما زالت مطروحة للبحث قبل إقرارها في الصيغة النهائيّة.

(٣) راجع الوثيقة الصادرة عن اجتماع اللجنة في فرايسنغ (ألمانيا)، حزيران ١٩٩٠.

فالمسؤوليّة بينهم واحدة، والجهود، بالرغم من التردّد أو العثرات، تتواصل في طريق التضافر والتكامل.

يبقى، أخيرًا، التشديد على أنّ الشهادة المسيحيّة في قلب الثقافة العربيّة وفي حوار صادق مع المسلمين تشدّ المسيحيّين بعضهم إلى بعض في دعوة واحدة. وما الاهتمام المشترك بإعادة اكتشاف التراث المسيحيّ العربيّ وإحياء التراثات الخاصّة لكلّ كنيسة من خلال الثقافة العربيّة إلاّ تعبيرًا عن ذلك.

وجه الكنيسة الحقيقيّ

إنّ التقارب المسكونيّ لا يحقّق غرضه الأخير ما لم يكسر حلقة الخوف والارتداد إلى هويّات نرجسيّة. وهو ليس تكاتفًا في وجه أحد بل يستدعي نهضة تكشف وجه الكنيسة الحقيقيّ من حيث هي هبة محبّة للعالم. لذلك فإنّ التزام المسيحيّين قضايا شعوبهم وتضامنهم مع مواطنيهم المسلمين هما في قلب شواغلهم المسكونيّة. فالانقسام بين المسيحيّين يحجب وجه المسيح، أمّا روح الوحدة الحقّ فإنّها تدفعهم إلى خدمة وحدة الناس كلّهم.